

مقاومة أحمد باي (1830-1848)

مقدمة:

يعتبر الحاج أحمد باي الكرغلي (1784-1850) أحد أبرز قادة المقاومة المسلحة في الجزائر، الذي أبى الاستسلام ومساومة الفرنسيين له، بل لم يدخر جهدا في مقاومتهم، لاسيما أمام تطلع جيش الاحتلال للتوسع في الشرق الجزائري الذي ألحق به هزائم وخسائر هامة، انعكست بدورها على الإدارة الفرنسية وسياساتها في مواجهة الأوضاع بالجزائر خلال فترة (1830-1848)، فما هي الدوافع الحقيقية لهذه المقاومة و مظاهر قوتها؟ وفيما تمثلت الانعكاسات المترتبة عنها؟

1-ظروف و دوافع المقاومة:

رفض الحاج أحمد باي الخضوع للسلطة الفرنسية وظل مؤمنا في مقاومته بالسلطة العثمانية، وبثقة الشعب فيه في حمل راية الجهاد، تولى حكم بايلك قسنطينة في عهد الداوي حسين عام 1826، وبرز كرجل كفء أثناء توليه لمناصب إدارية، منها قائدا لقبائل لعواسي وخليفة للباي، مما مكنه من إثبات جدارته في القيادة والإدارة، ووظف تجربته وعلاقاته الأسرية في إدارة بايلك الشرق على أحسن وجه، حيث استطاع أن يوحد قبائل الإقليم ، وقرب العلماء والأعيان إليه ،الأمر الذي مكنه من تحقيق الاستقرار في بايلكه.

قدم إلى العاصمة عام 1830، مصحوبا بحوالي 400 فارس لأداء الدانوش(ضريبة) لحكومة الداوي،علم بأخبار الحملة الفرنسية المستهدفة للجزائر عن طريق الداوي، الذي طلبه بالاستعداد للمواجهة،فتحمس لذلك،وقدم اقتراحاته لقائد الجيش إبراهيم آغا حول الخطة القتالية المناسبة لمواجهة بها العدو، إلا أن هذا الأخير لم يبال بها.

شارك أحمد باي في معركة سطوالي دفاعا عن العاصمة،التي فقد فيها حوالي 200 فارس من قواته،ولما أصبح جيش الداوي على وشك الإستسلام، انسحب بقواته متوجها إلى قسنطينة برفقة حوالي 1600 من الأهالي الفارين من الجيش الفرنسي ،وفي طريقه تلقى رسالة من القائد (دي بورمون)،دعاه من خلالها إلى الإستسلام، مقابل اعتراف فرنسا بمنصبه و دفع الجزية لها ، لكنه رفض وواصل سيره نحو قسنطينة، وقبل وصوله المدينة علم أن خصومه الأتراك قاموا بانقلاب ضده وعيّنوا بايا جديدا مكانه يدعى حمود بن شاكر، غير أن أنصاره بقيادة علي بن عيسى ومحمد بن الفكون وابن قانة تمكنوا من القضاء على المتآمرين.

وبعد استقراره بقسنطينة اتصل به قائد الجيش الفرنسي(كلوزيل) عن طريق رسالة، عرض عليه من خلالها تعيينه بايا على قسنطينة مقابل دفع الجزية لملك فرنسا،فاستشار أحمد باي ديوانه في الموضوع، وكان رده الرفض القاطع ، لذلك صمم(كلوزيل)التخلص منه بشتى الطرق، حيث قام في هذا الصدد بتوقيع معاهدة مع باي تونس لتضييق الخناق على أحمد باي،و كانت هذه المعاهدة قد نصت على تعيين سي مصطفى(شقيق باي تونس) بايا على قسنطينة خلفا للحاج أحمد،غير أن المعاهدة لم تتجسد ميدانيا بسبب رفض الحكومة الفرنسية المصادقة عليها.

و بدوره حاول القائد العام الفرنسي (الدوق دي ورفيغو) في سنة 1832 استمالة أحمد باي عن طريق مبعوثه حمدان خوجة ، عارضا عليه الاستسلام مع دفع ضريبة سنوية مقابل اعتراف فرنسا بمنصبه ، إلا أن هذا الأخير رفض الإستجابة لذلك، بعدما أدرك النوايا السيئة للفرنسيين.

توترت العلاقات بين أحمد باي و الفرنسيين إثر إقدامهم على احتلال عنابة في مارس 1832 و تعيينهم (يوسف المملوك) للإشراف على المدينة التي شهدت تصاعد المقاومة الشعبية، و محاولة باي قسنطينة تدعيمها بحملاته العسكرية المرسله إليها و اشتباكها مع القوات الغازية. و في ظل هذه الظروف عاد كلوزيل إلى السلطة الفرنسية بالجزائر (1836-1835) و صمم على احتلال قسنطينة، و أخذ يعد العدة لتحقيق ذلك، و قام في هذا الصد بتعيين يوسف المملوك (لقيط) بايا على قسنطينة، مستقرا بذلك الحاج أحمد، الذي أصبح يشعر بحجم الخطر الفرنسي المهدد لعاصمة ملكه انطلاقا من عنابة، لذلك شرع في الاستعداد لمواجهة الغزو الفرنسي.

2-مراحل المقاومة و مآلها:

1.2.المرحلة الأولى(1836-1837):

1.1.2. معركة قسنطينة الأولى (1836):

جهز الفرنسيون حملة عسكرية ضخمة في عنابة قوامها حوالي 8700 جندي لاحتلال قسنطينة، انطلقت من عنابة يوم 8 نوفمبر 1836 بقيادة المارشال كلوزيل، فاستعد أحمد باي لمواجهة بقواته المقدرة بحوالي 1500 رجل من المشاة(الرماة) و 500 رجل من الفرسان، واعتمد على خطة تقوم على تقسيم الجيش إلى قسمين، فالأول بقيادة خليفته ابن عيسى، تولى مهمة الدفاع عن المدينة من الداخل، بينما قاد أحمد باي القسم الثاني، الذي تمثلت مهمته خارج المدينة و ذلك بضرب قوات العدو من الخلف و العمل على تشتيتهم و عرقلتها للحيلولة دون وصولها إلى قسنطينة.

التقى الجيشان في مكان يعرف بـ: عقبة العشاري يوم 20 نوفمبر 1836 ، اضطر أحمد باي إلى التراجع أمام قوة الجيش الفرنسي، لكنه استمر في المقاومة حتى دخل قسنطينة، في حين نصب الفرنسيون مدافعهم على جبل المنصورة، وسيدي مبروك و شرعوا في قصف المدينة ، و حاولوا إرغام سكانها على الاستسلام لكنهم فشلوا في تحقيق ذلك، حيث واجههم المقاومون بكل بسالة ، خلال أيام 21، 22، و 23 نوفمبر في ظل تساقط الأمطار و الثلوج بغزارة، فاضطرت في الأخير قواتهم بقيادة (كلوزيل) إلى الانسحاب نحو قلعة تجر أذيال الهزيمة و العار، وكان لهذا الانتصار وقع كبير على الجزائريين، بحيث رفع من معنويات المقاومين و سكان المدينة، بعدما كبدوا قوات العدو خسائر فادحة تمثلت في هلاك ما بين 700 و 900 جندي فرنسي، و غنم أسلحة و معدات حربية، كما دفعت الهزيمة بفرنسا إلى عزل القائد (كلوزيل) و تعيين الجنرال دامريمون خلفا له

2.1.2. معركة قسنطينة الثانية (1837):

أصر الفرنسيون على احتلال قسنطينة و الانتقام لهزيمتهم و أعدوا جيشا ضخما مكونا من 11000 جندي بقيادة الجنرال (دامريمون)، الذي حاول مفاوضة أحمد باي مرة أخرى، لكن هذا الأخير أبي توقيع أي معاهدة مع الفرنسيين، و استعد للقتال من جديد، بعدما تمكن من تجنيد حوالي 5000 فارس و 2000 مشاة من المتطوعين، إضافة إلى جيشه النظامي، و أبقي على حوالي 1500 جندي بقسنطينة للدفاع

عنها، وهاجم الغزاة في موقعهم بمجاز عمار بالقرب من قالمة لمدة ثلاثة أيام، إلا أنه لم يتمكن من وضع حد لزحفهم على المدينة، الأمر الذي مكّنهم من ضرب حصار عليها وقصفها بالمدفعية، رغم استبسال المقاومين وتمكنهم من قتل قائد الحملة (دامريمون) وعدد من ضباطه.

تمكن الجيش الفرنسي بواسطة القصف المكثف من إحداث ثغرة في أسوار المدينة، ساعدته على التوغل نحو الداخل يوم 13 أكتوبر 1837، و خاض حرب الشوارع مع المقاومين، الذين لم يدخروا جهدا في الدفاع عن عرضهم و أرضهم، و استشهد المئات منهم.

و أمام تكبد الحاج أحمد باي خسائر كبيرة وهلاك أحسن جنده، واضطراره إلى الانسحاب خارج المدينة، نجحت القوات الفرنسية من إحتلال قسنطينة.

2.1.2. المرحلة الثانية (1837-1848): استمرار المقاومة

أبى الحاج أحمد باي الخضوع للأمر الواقع، رغم ضياع عاصمة ملكه عام 1837، ورفض العرض الفرنسي بالأمان وحمله إلى بلاد إسلامية، حيث قرر وضع خطة لمقاومة الفرنسيين بقطع خط التموين عليهم الرابط بين عنابة وقسنطينة، غير أن خاله ابن قانة اعترض على هذه الخطة وأراد أن يحارب خصمه (فرحات بن السعيد) بالصحراء أولا ثم الفرنسيين ثانيا وهي الخطة التي لم تكن في صالح المقاومة.

وبعد انسحاب أحمد باي إلى جبال الأوراس وقرى الزيبان، حاول إعادة تنظيم الصفوف وحشد الأنصار لمواصلة المقاومة، وخاض مواجهة خصمه (فرحات بن السعيد) في شمال بسكرة، وانتصر عليه، وقام هذا الأخير بإعلان ولائه للأمير عبد القادر، و من ثم تجددت المواجهات بينهما بشكل عنيف، لتجبر في الأخير أحمد باي وابن قانة على النزوح من بسكرة والاتجاه شمالا نحو باتنة، ولم يلبث ابن قانة أن تخلى عن أحمد باي وخضع للفرنسيين، إضافة إلى مكائد باي تونس له، الذي قام أيضا بالاستيلاء على المساعدات العسكرية العثمانية، المتمثلة في حوالي أربع سفن محملة بالجنود، و 12 مدفعا كانت متجهة إلى أحمد باي أثناء نزولها بميناء تونس، زيادة على ذلك تأليب فرنسا القبائل عليه، ونجاحها في توسيع هوة الخلاف بينه وبين والأمير عبد القادر، و هذا بعدما نجحت في توقيع معاهدة التافنة مع الأمير في 30 ماي 1837، إضافة إلى تقدم سنه، و مرضه، و ضعف إمكانياته القتالية، كل هذه العوامل ساهمت في تفهقر مقاومته، واضطراره في الأخير إلى الاستسلام للفرنسيين ببسكرة خلال شهر جوان 1848، ثم نقل إلى العاصمة و ظل خاضعا للإقامة الجبرية إلى غاية وفاته عام 1850.

المصادر والمراجع الأساسية

1- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

2- مذكرات أحمد باي و حمدان خوجة و بوضربة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981

3- المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، تاريخ الجزائر (1830-1962)، (قرص مضغوط)، وزارة المجاهدين، الجزائر 2002

- 4- بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية، ثورة أول نوفمبر 1954، معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة و النشر، الجزائر، 2012
- 5- بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2009
- 6- بلّاح بشير ، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006
- 7- خيثر عبد النور و آخرون، أسس و منطلقات الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، (د.ب.ت)
- 8- رامي سيد أحمد، قراءة في أسباب فشل المقاومات الشعبية في طرد الإحتلال الفرنسي من الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، العدد 7، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة ، الجزائر، 2017
- 9- سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982
- 10- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992
- 11- مقلاتي عبد الله، المرجع في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014
- 12- نجادي بوعلام، الإستعمار الفرنسي في الجزائر زمن المجازر (حقبة التحريق)، موفم للنشر، الجزائر، 2013
- 13- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996